دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

صوم يونان

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

صوم يونان

الأب متى المسكين

كتاب: صوم يونان.
المؤلف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأولى: ٢٠٠٢
الطبعةالثانية: ٢٠٠٧
مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون.
ص.ب ٢٧٨٠ – القاهرة.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٢/٤٩١٣
رقم الإيداع الدولي: ISBN 977-240-112-6

يُطلب من:

دار مجلة مـرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون ٥٧٧٠٦١٤
الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠

أو من: مكتبة الدير
أو من خلال الموقع على الإنترنت:
www.stmacariusmonastery.org

يونان، ونينوى، ونحن(*)

•••✞••

ليس عبثاً وضعت الكنيسة هذا الصوم المبارك في هذا الوقت بالذات، فترتيب الكنيسة دائماً مُلهَم.

تعلمون أننا قادمون على الصوم الأربعيني المقدس. والكلام هنا مُركَّز وموجَّه. فكلمة "الأربعين" ذات أهمية خاصة، ذلك لأننا قادمون على موت يجوزه المسيح عن البشرية كلها، أو هو استبدال موت المسيح بهلاك البشرية، ذلك لأن البشرية كلها كانت في حالة هلاك أو مُشرفة على هلاك وإبادة لا تقل عن إبادة الطوفان (٤٠ يوماً)، وذلك بسبب تعاظم سلطان الخطية.

وهذا ما حَدَا بالابن المبارك أن يترك مجده ويلبس بشريتنا ويتألَّم لكي ينقذ البشرية. لقد قدَّم نفسه عِوَضاً عن هلاك البشرية ثم قام، فصار موته وقيامته مصدر خلاص وتوبة لا تنتهي. صار آية لكل مَنْ يريد أن يرى – لا لمجرد أن يرى الإنسان آية من السماء: «نريد أن نرى منك آية» (مت ١٢: ٣٨) – بل يرث السماء نفسها. فهذا هو موت المسيح وقيامته. وهذا هو الصوم الأربعيني الذي صامه الرب عن البشرية كلها، وذلك ليوفي عنها كل نقص في نسك أو في صوم.

(*) ملخَّص عظة أُلقيت في كنيسة القديس أنبا مقار في صوم يونان المبارك سنة ١٩٧٤.

والكنسيون منكم يتذكَّرون أننا لا زلنا نردِّد ألحان عيد الظهور الإلهي، أي التعميد الذي لا يتم حسب الطقس إلاَّ بالتغطيس الكامل تحت سطح الماء (ثلاث مرات)، أي في عمق المياه ـ أو بتعبير قصة يونان ـ نزل إلى بطن الماء. لذلك لما خرج المسيح من الماء، اعتُبِر ذلك مسحة خدم بها، تلك التي تقدَّم بها للدخول في صوم الأربعين يوماً، ثم إذا تجاوزنا الزمان أو التزمنا بالطقس الكنسي ندخل مباشرة في أسبوع الآلام ثم الموت فالقيامة.

وهكذا يأتي صوم يونان قبل الأربعين المقدسة حاملاً معاني ورموزاً كثيرة ما بين الغطاس والموت على الصليب!!

نعود إلى يونان، ونسأل: مَنْ هذا المدعو يونان؟

هو إنسانٌ نبي، من العبرانيين، أتاه صوت الرب هكذا:

+ «وصار قول الرب إلى يونان بن أَمِتَّاي قائلاً: قُم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة...» (يون ١:١و٢)

فقام يونان، بل يقول الكتاب: إنه "قام وهرب" إلى ترشيش من وجه الرب، وذهب، وهاج البحر.

إن سِفْر يونان لم يوضِّح أكثر من هذا، وطبعاً إنَّ أي عدم توضيح في الأسفار أو في الإنجيل ليس معناه قصوراً أو خللاً في التدوين ولا حتى سهواً، ولكنه فُسْحَة للفكر العميق وللنفس المتأمِّلة، لتستوعب الأشياء التي لا يمكن أن تُكتب في سطور. وأتمنى أن يكون هذا الكلام له صدى عند السامع أو القارئ، لأن كثيرين يشتكون من غموض

بعض المواضع في العهد القديم؛ بل وفي الإنجيل أيضاً.

صوت الرب يقول ليونان: "اذهب وبشِّر نينوى، لأن شرها صعد أمامي". فهرب يونان ونزل في بطن الماء (الحوت)، وبَقِيَ فيه ثلاثة أيام. وبالتعبير الكتابي، فإنَّ المسيح نزل إلى الهاوية ثلاثة أيام وثلاث ليال؛ ويونان نزل إلى العمق، في بطن الحوت، ثلاثة أيام وثلاث ليال، وبتعبيره هو قال: «صرختُ من جوف الهاوية» (يون ٢:٢). وهكذا يبدو سفر يونان تطبيقياً ورؤيوياً، وكل سطر وكلمة فيه تشير إلى المسيح بصورة قوية جداً. وهنا يمكن اعتبار يونان بمثابة يوحنا المعمدان في العهد الجديد الصارخ لِيُعدَّ طريق الرب.

يونان هو رمزٌ حيٌّ بشخصه يمثِّل المسيح. عماد المسيح دفع به إلى الأربعين المقدسة، والأربعين إلى الصليب ثم إلى القيامة. تماماً، كما نزل يونان الماءَ ثم ذهب إلى نينوى كارزاً لها بالتوبة قائلاً: إن المدينة **ستهلك بعد أربعين يوماً** ـ كأنما هنا إشارة خفية أن الأربعين يوماً هذه مهمة في تحديدات الله ـ وكأنها وفاء أقصى مدة محددة للهلاك (الطوفان)؛ لكن الرب وفَّاها وقضاها في صومه الأربعيني عن البشرية كلها.

أما هروب يونان، فكأنه يستصعب الدعوة، لكنه بعد أن نزل في الماء وظل فيه ثلاثة أيام، حدث له شيء ما، لأنه بعدما ألقاه الحوت على الشاطئ، قال له الرب مرة ثانية بنفس الألفاظ الأولى: «قُم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة، ونادِ لها المناداة التي أنا مُكلِّمُكَ بها» (يون ٢:٣). فانصاع يونان وكأنما تجدد فكره بعد أن اعتمد لنينوى ثلاثة أيام في العمق.

هنا شيء سرِّي حدث، **وكأنما النزول في الماء ـ معمودية يونان ـ هو اجتياز الموت والقيامة لنينوى.**

يا للعجب على الإشارات البليغة، يا للكنيسة التي تستطيع باللمسات الحقيقية أن تحدِّد صوماً محدَّداً أو عيداً معيَّناً. تحديدات كلها إلهام ورؤيا لِمَنْ يريد أن يسمع أو يرى، وليس كالكتبة والفرِّيسيين الذين قالوا للرب: «نريد أن نرى آية»، متغاضين عمَّا حدث من قبل.

وضعت الكنيسة هذا السفر أمام أعيننا في هذه الأيام لنستطيع أن نستوعبه لأنفسنا: أولاً في يونان، وثانياً في نينوى. لأن ليونان ونينوى رسالتين لنا في حياتنا. فيونان يضع لمسات صورة المسيح القادم من بعيد. ونينوى تبكِّتنا بشدة: «رجال نينوى سيقومون في الدِّين مع هذا الجيل ويدينونه... جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تُعطَى له آية إلاَّ آية يونان النبي.» (مت ١٢:٤١و٣٩)

«**هذا الجيل**»: لا يقصد به الوحي زمن جيل المسيح فحسب ـ كما يقول أغلبية الشُّرَّاح ـ ولكنه هو هذا الجيل، أي كل جيل شرير وفاسق، كل جيل فيه الشرير والفاسق فهو «هذا الجيل». أما جيل المسيح الذي هو جيل الرسل، فهو جيل مستمر فينا وبنا حتى الآن. وأنتم تسمعون الكاهن يقول: "اذكر يا رب كنيستك الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية"، ثم تسمع في المجمع أسماء البطاركة حتى آخر بطريرك. فالكنيسة ممتدة من المسيح والرسل إلى هذا اليوم. فهو جيل واحد، هو جيل المسيح، وهذا اسمه؛ الجيل الشاهد للمسيح حتى آخر يوم في تاريخ البشرية، جيل ممتد، الجيل الطيب القديس الطاهر.

أما الجيل الآخر، فهو جيل قايين، وجيل يهوذا، الجيل الصالب، هو أيضاً جيل ممتد حتى هذا اليوم؛ فيه يهوذا وفيه أيضاً الصالب.

«**جيل شرير وفاسق**»: قد تبدو هنا قسوة في كلام المسيح، ولكن ليس الأمر كذلك. هو جيل فاسق وشرير لأنه زاغ عن الله. وإذا سمعتَ عن "الفسق والشر" في الإنجيل، فلتفهم أنه يقصد الوضع الروحي وليس الجسدي (لأن الوضع الجسدي يمكنه بطعنة في الضمير الحيّ من سيف كلمة الله أن يُحوِّل أشر الناس إلى القداسة). الشر الروحي، هو أن نعبد غير الله، أن نرتمي في أحضان الشيطان، هذه هي الخيانة الزوجية؛ لأن المسيح اتخذ الكنيسة لنفسه عروساً، وحَسِبَ نفسه عريساً للكنيسة، كما يقول بولس الرسول: «لأني خطبتكم لرجلٍ واحد، لأُقدِّم عذراء عفيفة للمسيح.» (٢كو ١١:٢)

«**جيل شرير وفاسق يطلب آية**»: هل يريد هذا الجيل أن يُرسل له الله ناراً من السماء؟ أو يُرسل له منًّا من السماء يأكله ويشبع؟ ألم يقدِّم لهم الطعام في معجزة إكثار الخمس الخبزات والسمكتين (إنجيل اليوم الثالث من صوم يونان)؟ ولكن لننتبه لأنفسنا جداً، لأن الآية لا تزيد الإيمان، ولكن الإيمان بحدِّ ذاته آية!! تذكرون قول الإنجيل: إن المسيح «لم يصنع هناك (في الناصرة) قواتٍ كثيرة لعدم إيمانهم» (مت ١٣:٥٨). لن يستطيع المسيح أن يعمل لك آية في حياتك إن لم يسبقها إيمان.

«**ولا تُعطَى له آية إلاَّ آية يونان النبي**»: جيل فاسق شرير، وخطيته شنيعة جداً، لن تنفعه الآيات من السماء. ولكن آيته الوحيدة

هي التي تُقيمه من موت الضمير، وآيته هي آية يونان النبي، آية الموت، لأن يونان في عُرف المنطق والعلم أنه كان يتحتَّم أن يموت في بطن الحوت. يونان مات، نعم مات؛ والرب أقامه. ولكن لِمَن كان الموت؟ ما أجمله موتاً ذلك الذي نموته كل يوم من أجل الآخرين! ما أجملك يا يونان، يا نبي الفداء، وأنت تموت ثلاثة أيام بلياليها لتُكفِّر عن خطيتك وخطية نينوى العظيمة!!

الشُّرَّاح الغربيون يقولون عن سفر يونان إنه سفر خُرافي؛ أما المتساهلون منهم فيقولون عن يونان إنه يُمثِّل الابن الأكبر (في مَثَل الابن الضال)، لأن نينوى لَمَّا خلصت، حزن يونان وصار مثل الابن الأكبر الذي لم يُرِدْ أن يدخل البيت.

لا، لم يحدث هذا، الحقيقة العميقة هي أن يونان تمنَّع من الذهاب لنينوى لئلا يبشِّرها بالخراب!! ولأنه يعلم علم اليقين أن الله طويل الأناة بطيء الغضب، وسيصفح حتماً في النهاية. لذلك هرب يونان لئلا يواجه محنتين: محنة التبشير بالخراب، وهو عسرٌ كل العُسْر على النفس الوديعة؛ ومحنة رجوع الله عن غضبه، فيظهر يونان وكأنه يسخر من شعب غريب. ولكن أين يهرب يونان من وجه الله؟ فالله دائماً يُطارِد الخادم الهارب. فكل إنسان يمكن أن يهرب من وجه الله، إلاَّ مَن سمع صوته وحمل نيره وقَبِلَ اسمه القدوس.

في الفكر القبطي، يونان ليس هو الابن الأكبر الذي حزن على خلاص نينوى، ولكنه مثال المسيح. هو نبي الفداء المبدع، لا يَقِلُّ بل ربما يزيد عن كل الأنبياء في العهد القديم، رقة ورهافة؛ لا يُماثله في

هذه الرهافة والرقة إلاَّ نبي واحد مظلوم مثله، هو أيوب.

يونان لم يحتملِ أن يكون كارزاً بالخراب. وفي إنجيل القديس لوقا إشارة لطيفة جداً ولكنها سرِّية للغاية، تكشف عن حدوث صِلة توبيخ لأهل نينوى بسبب المخاطرة العُظمى والموت المُحقَّق الذي تعرَّض له يونان من أجلهم: «كما كان يونان **آية لأهل نينوى**، كذلك يكون ابن الإنسان أيضاً لهذا الجيل.» (لو ١١:٣٠)

إذن، فقد بلغ أهل نينوى أن يونان عَبَرَ محنة الموت في داخل بطن الحوت ثلاثة أيام، ثم قام من أجل خلاصهم!!!

هنا يقصد إنجيل القديس لوقا أنه كما كان يونان بنفسه (وليس بكرازته فقط) آية لأهل نينوى، هكذا يكون ابن الإنسان **بنفسه** آية لهذا الجيل، أي بموته وقيامته.

من الصعب جداً، يا إخوة، أن نتكلَّم كثيراً عن ضغطة الموت على مدى ثلاثة أيام بلياليها التي جازها يونان، ولكننا نعرفها أكيداً في تطبيقها على المسيح لما مكث ثلاثة أيام وثلاث ليال في الهاوية ثم قام: «سَبَى سبياً وأعطى الناس عطايا (كرامات)» (أف ٤:٨)، قام «ونفخ (في وجه تلاميذه) وقال لهم: ... مَنْ غفرتم خطاياه تُغْفَر له» (يو ٢٠:٢٢و٢٣). أعطى الحلَّ والبركة على الأرض لتدوم إلى أبد الآبدين، إذ نسمع الكاهن يقول: "كما أعطيتَ الحلَّ للتلاميذ ليغفروا الخطايا..."، هكذا دام هذا الحلُّ الذي يفكُّ كل الخطايا.

هكذا قام يونان وكرز لنينوى، ليحلَّ عنهم بضيقة موته ثم بكرازته

غضب الله!! ويبدو أنه قال لهم ما حدث له.

وأما من جهة نينوى المدينة العظيمة، فنحن قادمون هنا لمنظر من المناظر الرهيبة، إذ بمجرد أن سمع الملك بما حدث ليونان، وبما نادَى به، قام عن كرسيِّه الملكي وخلع ثيابه وفخفخته وجماله وفخره الكاذب، ولَبِسَ المسوح، والشعب كله لَبِسَ المسوح ـ والمسوح هي ثوب من شعر المعزى، خشن الملمس جداً ـ وأعطى الملك أمراً أن يُرفع الطعام عن كل إنسان، كبيراً كان أم صغيراً، حتى الرضيع على صدر أُمه ـ يا للهول ـ وعن البهائم كلها. وهنا كأنما الخليقة كلها تتمثَّل في قصة توبة نينوى. وكان ذلك إلى ثلاثة أيام.

مدينة فيها "١/٨" مليون نسمة، تتوب كلها ويعفو الرب عنها من أجل توبة جماعية ناشطة، وتدبير مُتقن لهذا الملك النصوح الواعي الذي استطاع بحكمته أن يرفع حُكْم الموت عن شعبه. يا للرعاية، ويا لحكمة الراعي!!

ثم ما هذا الحضن المتَّسع يا الله؟ إن هذا عجبٌ كبير حقًّا!! مدينة وثنية تؤمن بالله بكرازة واحدة!

نعم، ليس بآية من السماء ولا من الأرض تتوب البشرية أو يُعفَى عن إثمها؛ بل بالاتضاع والصوم والصلاة وتذلُّل القلب لدى الله القدير!!

آه لو عَلِمَ كل خاطئ هذا، ما استكثر خطاياه أبداً على عفو الله. لو عَلِمَت الكنيسة ما ينبغي أن تكون عليه من توبة جماعية، لجلست

مع أبنائها في هذه المسوح وفي تراب المذلَّة إلى أن تجتذب لنفسها عفواً من السماء، ولكانت أزمنة الفرج تأتي من السماء سريعاً!! كما قال بطرس الرسول (أع ٣: ١٩).

يا أحبائي، إن تعطَّلت أزمنة الفرج، فالعيب هو منا. نينوى كانت تسير إلى الهاوية والهلاك أكيداً وسريعاً، ولكن بوقفة شريفة شُجاعة أمينة على قدر الدعوة وقدر التهديد، استطاعت أن تجتذب لنفسها عفواً من السماء.

ماذا يعوزك أيها الخاطئ؟ أيعوزك المسوح؟ أيعوزك التراب؟ ماذا يعوزك؟

لو كانت التوبة بذهب وفضة، لو كانت تستلزم سُلَّماً عالياً نطلع به إلى السماء، لو كانت تستلزم منَّا جهداً نفسانياً أو عقلياً أو جسمانياً أو حكمة فائقة أو علماً زاهراً، لكي نُحدر المسيح من السماء أو نُصعده من الهاوية؛ لقلنا إن التوبة صعبة وشاقة. ولكن ملك نينوى وشعبها ونساءها وأطفالها وبهائمها عرفت طريقها سريعاً إلى النجاة. فما بالنا نتعطَّل نحن، وما بالنا نذهب يميناً ويساراً ونستشير الكبير والصغير، والخلاص أمامنا وبابه مفتوح، والذين دخلوا منه كثيرون، ومن كل شعب ولسان وأُمَّة!!

وها هي نينوى تضع لنا نموذجاً لتوبة بسيطة قادرة بعنفها أن تفتح أبواب السماء، وتُحدر عفواً شاملاً بلا أي استثناء للمدينة بأسرها، قيل عنها في الكتاب إنها لا تعرف شمالها من يمينها!!

يا إخوة، نحن قادمون على الأربعين المقدسة، يعوزنا قلب كقلب ملك

نينوى وشعب نينوى. أما مجرد ذِكر البهائم الصائمة وهي خائرة على مذاودها، ففيه توبيخ لنفسي، لأني أرى في نفسي وحوشاً ضارية تتعالى على غيرها كما يعلو الأسد على الغزال. كم فيكِ، يا نفسي، من غرائز تحتاج إلى تذلُّل بالجوع والمسوح! منظر نينوى وبهائمها واقفة على المذاود تئن، مرعب لشهواتي وملذّاتي. الثيران وقعت من الجوع خائرة. وكم فيكِ من هذا، يا نفسي، يا مدينة الله! ما أجملكِ، يا نفسي، وأنتِ جالسة في المسوح والتراب متشبِّهة بنينوى!! جيدٌ لكِ، يا نفسي، في هذه الأربعين المقدسة أن تربطي حواسكِ كلها، البهيمي منها والوحشي، ولا تفتكري أنكِ بنت المدينة العُظمى التي تعرف شمالها من يمينها، لأن الخطية لا يتعالى عليها إلاَّ مَنْ ذاق ما ذاقته نينوى!!

اليوم، يا أحبائي، أكشف أمامكم سرَّ السماء بلا ستار، بلا حجاب: ملك يترك عرشه، وينتزع الخلاص، وينتزع العفو السمائي، بتوبة جميلة رائعة استطاع أن يحصل عليها وهو في التراب وفي الرماد.

ثقوا، إن ساعات الخلاص وأيام الرجاء لا تأتي جزافاً أبداً. إن كنت تريد خلاصاً سريعاً، إن كنت تريد أزمنة فرج؛ فاليوم تعلَّم من درس نينوى، وهو درس للأجيال كلها: "جيل شرير وفاسق يطلب آية، ولا تُعطَى له آية إلاَّ **آية نينوى**".

آية نينوى لا تقلُّ إطلاقاً عن تفتيح عيني الأعمى، وعن إطعام الجائعين بخمس خبزات وسمكتين، وتحويل الماء إلى خمر.

آية نينوى فاقت كل آية إلاَّ موت المسيح وقيامته، ولكن الجديد في

آية نينوى أنها تابت بمناداة نبي. والآن، الصوت الذي يُنادينا أعظم من كل نبي.

فيونان نادَى بالموت أو بالتوبة، ولكن المسيح يُقدِّم لنا موته قوة حيَّة محيية قادرة أن تُقيم من الخطية والموت!!

اليوم، يا أحبائي، يوم نينوى ونبيها الرقيق المشاعر، النبي الفادي القائل: "هذه خطيتي" حينما هاج البحر، ولم يَقُلْ: "هذه خطية نينوى".

يونان هنا يُنادى كل خادم، كل واعظ، كل كاهن، كيف يرى خطية شعبه ومدينته، ويرى في آلامه وحزنه وضيقه، بل في موته، فدية لأولاده.

وصلَّى يونان إلى الرب إلهه من جوف الحوت وقال:

+ «دعوتُ من ضيقي الربَّ فاستجابني. صرختُ من جوف الهاوية فسَمِعتَ صوتي، لأنك طرحتني في العمق في قلب البحار. فأحاط بي نهرٌ (نهر الموت). جازت فوقي جميع تيَّاراتك ولججك. فقلتُ قد طُرِدْتُ من أمام عينيك (قارن مع قول المسيح على الصليب: «إلهي إلهي لماذا تركتني؟» مت ٢٧:٤٦). ولكنني أعود أنظر إلى هيكل قدسك (قارن مع قول المسيح: «وفي اليوم الثالث يقوم (المسيح)» مت ٢٠:١٩). قد اكتنفتني مياهٌ إلى النَّفْس (هذا المزمور يُقال في يوم جمعة الصلبوت). أحاط بي غمرٌ. التفَّ عشب البحر برأسي. نزلتُ إلى أسافل الجبال، مغاليق الأرض عليَّ إلى الأبد. ثم أصعدتَ من الوَهْدة حياتي، أيها الرب إلهي. حين أَعْيَت فيَّ نفسي ذكرتُ الربَّ،

فجاءت إليك صلاتي إلى هيكل قدسك. الذين يُراعون أباطيل كاذبة يتركون نعمتهم. أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك، وأُوفي بما نذرته. للرب الخلاص.» (يو ٢:١–٩)

هكذا تكون صلواتنا في ضيقاتنا. اشْتَكِ للرب فقط، شكوى الممنونين: "جازت عليَّ آلامك، يا رب. أجزتني المحنة، وأمْرَرْتني تحت العصا. المرُّ في حلقي. دَخَلَتْ المرارة إلى قلبي وإلى نفسي"، وكما يقول إرميا النبي: «توجعني جدران قلبي» (إر ٤:١٩)، بتعبير عجيب، كله أنين الشكر وشكوى الحمد.

إن صلاة يونان هي المزامير الجديدة للسائرين في طريق الجلجثة والتي حتماً تُردِّد قرارها في السماء كل الأرواح المُبرَّرة المُكمَّلة في المجد. إنها السُّلَّم الجديد الذي نرتفع عليه لكي نطل خلسة إطلالة سريعة على المجد المُعدّ!!

نعم، هكذا يُغتصب ملكوت السموات!! بصلاة كصلاة يونان وهو في عمق الهاوية.

اليوم، يا أحبائي، هو يوم التوبة الغاصبة لحقوق القديسين وميراث ابن الله.

اليوم، مفهومٌ جديد لمعنى الكرازة بالبذل حتى الدم.

اليوم، دعوة للكارز ليسلك طريق النجاة لنفسه وشعبه، للراعي والرعية.

هذه نينوى تعطينا صورة حاسمة لكل دقائق ومعنى استرضاء وجه الله!!

يا رعية الله، صغيرها وكبيرها، شيخها وطفلها، مريضها وسليمها، هذه نينوى أمامنا آية.

ويا كارزي المسكونة، ويا واعظي الكنيسة، هوذا يونان لكم اليوم مَثَلٌ يُحتذى، كيف كان؟ وماذا صار؟ فيونان قبل أن يدخل محنة الموت والثلاثة الأيام بلياليها، ما كان نافعاً لا لنينوى ولا لنفسه، حيث كان سيذهب إلى ترشيش ليأكل الخرنوب مع الخنازير.

وها هوذا يونان بعد أن صلَّى من عمق التجربة وأهوال الموت، يُرينا كيف جاز التجربة حتى النهاية، وصار يونان كارزاً بشبه المسيح، وحُسِبَ له موته بشبه فداء. وهكذا تكرَّم يونان بهذه التجربة، فصار هو النبي الوحيد الذي أخذه المسيح ليضعه نموذجاً لموته وقيامته!! وآية للتائبين!!

صلاة

يا رب الفداء الحقيقي الذي منك نستمد كل معنى وكل قوة للفداء، أعطِ، يا رب، روح الفداء لرعاة شعبك، الكبير منهم والصغير، العجوز والحدَث، المطران والكاهن، أعطهم روح يونان، يا رب. وأما رعيتك فأعطها طاعة كطاعة نينوى لمليكها لقبول مرارة التوبة، لتنجو ولا تُدان مع العالم، وليؤمن شعبك بالحق أنَّ الربَّ قادرٌ أن يُميت وأن يُحيي.

فيا شعب الله، اطلبوا الحياة بسيرة التوبة، ولا تسعوا بسيرة أهل العالم في طريق الموت.

يا رب أعطِ رعيتك جميعاً روحاً كروح نينوى في هذا اليوم، ليتوب شعبك، وتتوب كل مدن ممالك الأرض إليك، ولتأتِ أزمنة الفرج سريعاً من عندك على العالم. آمين.

(فبراير ١٩٧٩م)

يونان والمسيح

رأى الرب يسوع في يونان مثلاً مصغَّراً ليُبرهن به على موته وبقائه في الأرض - أي في القبر - ثلاثة أيام وثلاث ليال، وبرغم هذا الموت في حدوده النهائية التي بعدها لا يصبح للجسد أية فرصة للحياة حيث ينتن ويضرب فيه العفن؛ تصبح القيامة التي قامها الرب من الموت بعد ثلاثة أيام ليست استمراراً لحياة سابقة، بل حياة جديدة بجسد جديد ليس فيه بعد عناصر الموت، إذ يكون قد غلب الموت وأنهى على سلطانه في الجسد العتيق.

١ - **ويونان** ابن أَمِتَّاي - كما يقول الكتاب - رجل عبراني من سبط زبولون، عاش ما بين سنة ٨٥٠-٨٢٠ ق.م، من مدينة جتّ حافر في تخوم زبولون. وهو الذي تنبأ أيام يربعام الثاني ملك إسرائيل، وأَمَصْيا وعزريا ملكي يهوذا. وهو محسوب من طبقة الأنبياء، مع ناحوم وعوبديا، الذين نادوا بدينونة الشعوب كأمم. على أن قرعة سُكنى زبولون في أرض كنعان، كانت بحسب نبوَّة يعقوب إسرائيل قبل موته: «زبولون عند ساحل البحر يسكنُ، وهو عند ساحل السفن وجانبه عند صيدون» (تك ٤٩:١٣). وهذا ما حدث بالفعل على يد يشوع بعد هذه النبوَّة حينما أَسكَن سبط

زبولون هناك. والمعنى أن يونان كان يسكن على البحر.

٢ - أما **نينوى** فهي مدينة يصفها الكتاب أنها مدينة عظيمة، وهي عاصمة أشور (العراق الآن). وبلاد أشور هي التي أَسَّسها أشور من أحفاد كوش ابن حام ابن نوح. وكانت مدينة جميلة، محيطها - كما يقول الكتاب - مسيرة ثلاثة أيام. وهذا معناه أن مساحتها ٩٠ ميلاً مربعاً، وقد عمَّرت ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) سنة. والذي بناها هو الملك تَغْلَث فَلاسِر الأول ابن شَلْمَنْأَسَر الأول، وهو أول مَنْ ذكره الكتاب من ملوك الأشوريين. وضعفت المدينة جداً، ولكن جدَّدها تَغْلَث فَلاسِر الثالث. وهذا الملك هو الذي أذلَّ يهوآحاز ملك يهوذا، وفقَح وهوشع ملكي إسرائيل، ورصين ملك دمشق، وحيرام ملك صور، ومرودخ بلادان؛ وهاجم إسرائيل وسبى السبطين ونصف الذين كانوا عَبْرَ الأردن، وأَسكنهم أرضه وقد فَنَوا هناك وزال اسمهم إلى الأبد. ثم هاجم شلمنأسر الخامس إسرائيل وأذلَّ هوشع ملك إسرائيل وأودعه السجن، وسبى إسرائيل وأسكنهم في مدنه (٢مل ١٧:١-٥) سنة ٧٢١ ق.م.

وانتقام الرب من أشور يصفه صَفَنْيا حيث سقطت. فبعد ما استخدم الله أشور لتأديب إسرائيل كعصا تأديب، إلاَّ أنه عاد وكسر هذه العصا: «لأنه لا تستقر عصا الأشرار على نصيب الصِّدِّيقين» (مز ١٢٥:٣)، «ويل لأشور قضيب غضبي، والعصا في يدهم هي سخطي. على أُمة منافقة أُرسله، وعلى شعب سخطي أُوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهباً،

ويجعلهم مدوسين كطين الأزقَّة...» (إش ١٠:٥-١١)

أما كون الله يُرسل يونان كنبي إنذار ليُنبئ نينوى (وهي مدينة أُممية لا تعرف شمالها من يمينها) بخرابها إذا لم تَتُبْ، فكان هذا صورة واقعية للأمم في تدبير الله الذي أرسل ابنه ليدعو أُمم العالم التي لا تعرف شمالها من يمينها لكي يتوبوا وتُمحى خطاياهم. والمَثَل محبوك غاية الحَبْك لأنه كما تابت نينوى بمناداة يونان باسم الله، هكذا دخلت الأمم في عصر توبتها بالمناداة باسم الرب يسوع المسيح. ولكن لم يكن مجاناً أن قبلت نينوى توبتها إذ دفع يونان ثمن هذه المناداة من حياته ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ قضاها في قفص الموت في باطن حوت، يقول القديس جيروم إن حلقومه واسع جداً كحلقوم الموت، وهو من فصيلة تُسمَّى "زافا" من أكبر أنواع الحيتان المعروفة، أرسله الرب خصيصاً لكي يشبه الهاوية.

والعجيب أن يونان بعد أن تقبَّل رسالة الكرازة بهلاك نينوى إذا لم تكمل توبتها في المسوح والرماد والصوم حتى التصاق البطون في الأرض؛ حاول الهرب، فكان هروبه لحياته من وجه الرب ـ لمرارة الرسالة ـ معناه الحكم بالإعدام على نينوى، فلم يسمح له الله. وكأن محاولة هروب يونان قريبة الشبه من جثسيماني التي أراد فيها الرب كإنسان أن يُجيز الآب عنه هذه الكأس لشدة مرارتها فلم يسمح. وكان أن تمَّت إرادة الآب وقَبِلَها الابن راضياً. وكما كلَّفت جثسيماني الركوع والدموع والحزن الشديد حتى الموت، كلَّفت يونان محاولة هروبه أن يُلقَى أخيراً في البحر كمسخوطٍ عليه من الله،

ورَضِيَ يونان بذلك؛ بل هو الذي طلب أن يلقوه في البحر ليهدأ زئير الموت الذي نوى أن يبتلعهم.

كانت رحلة يونان إلى أرض ترشيش، التي هي كيليكية في آسيا الصغرى، التي نوى الاختباء فيها على بُعْد ٢٥٠ ميلاً. والعجب أنه لَمَّا قذفه الحوت على شاطئها أعاد الله أمره ثانية إذ كان له بالمرصاد. فالرب يصنع أمراً كان مقضياً به على الأرض، ولا رادَّ لقضائه، مهما تفنن الإنسان في هروبه. وكان على يونان أن يسير على رجليه حتى يصل إلى نينوى وهي مسافة الـ ٢٥٠ ميلاً بعينها.

ونادَى يونان، وتابت نينوى. ولكن اهتم الكتاب بأن يصف بدقة شروط التوبة، لأن هذا هو بيت القصيد من صوم نينوى ومن موضعه قبل الأربعين المقدسة بأسبوعين.

يقول الكتاب:

+ «فآمن أهل نينوى بالله ونادوا بصوم ولبسوا مُسُوحاً من كبيرهم إلى صغيرهم. وبلغ الأمر ملك نينوى فقام عن كرسيه وخلع رداءه عنه وتغطَّى بمسح وجلس على الرماد، ونُودي وقيل في نينوى عن أمر الملك وعظمائه قائلاً: لا تَذُق الناس ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئاً، لا تَرْعَ ولا تشرب ماءً. وليتغطَّ بمسوحٍ الناس والبهائم، ويصرخوا إلى الله بشدة، ويرجعوا كل واحد عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي في أيديهم؛ لعل الله يعود ويندم ويرجع عن حُمُو غضبه فلا نهلك.» (يونان ٣:٥-٩)

والآن، أيها الإخوة، أُصارحكم القول إني في حياتي لم أرَ ولم أسمع عن منهج توبة صادقة وأمينة وشُجاعة، شَجاعة مَنْ كأنه يواجه شخص الموت لكي يصرعه ويرميه أرضاً ويدوسه بقدميه؛ شَجاعة هي بعينها شجاعة الارتفاع على صليب الموت ليُحدر الموت إلى التراب ويدوسه بقدميه. ما أعجب هذا الملك، ملك نينوى، الذي أتاه الله هذه النعمة وهذه الشجاعة والجرأة التي تحدَّى بها إنذار الموت.

عجبي على حكمة هذا الملك النبي، كيف أمر أن الأطفال الرُّضَّع يُرفع عنهم الثدي ليصل صراخهم رب السماء، ويُمنع حتى البهائم عن الأكل والشرب ليكون صراخها أعلى من صراخ الإنسان ليدخل أُذنيّ رب الرحمة. وكيف ساوَى نفسه بعبيده بنزوله عن عرش مُلكه بلبس المسوح من شعر الماعز الخشن والارتماء على الأرض حتى يراه عبيده فيتسابقوا بالتمثُّل به في لبس المسوح والانبطاح في الرماد والصراخ إلى الله، وصارت توبتهم بأمر ملكي عن الظلم والغش والسرقة وإتيان الشر والإثم. مَنْ سمع مثل هذا؟ مَنْ رأى ملكاً يقود شعبه في الصراخ إلى الله وطلب التوبة بلبس المسوح والتمرُّغ في الرماد؟

لم تكن خشيتهم من موت، لأنهم بعملهم هذا فاقوا ألم الموت، ولكن كانت خشيتهم من الله الذي في يده الموت والحياة. نظر الله من السماء فرأى المدينة العظيمة نينوى منبطحة على الأرض، يقود تذلُّلهم ملكُهم الذي كان السابق في ذُلِّه ومُسحه وتمرُّغه في التراب، والصراخ يزلزل الأرض، وقد بلغ السماءَ صراخُ ملكٍ وشعب وأطفال رُضَّع وبهائم. الكل بنفس واحدة يطلب الرحمة. يقول الكتاب: «فلما رأى

الله أعمالهم أنهم رجعوا عن طريقهم الرديئة، ندم الله على الشر الذي تكلَّم أن يصنعه بهم فلم يصنعه!» (يونان ٣: ١٠)

ووَضْعُ صوم يونان الذي حتَّمته الكنيسة لكي يكون قبل **الأربعين** المقدسة، هو إلهام بالروح تشير إليه كلمة الإنذار التي أعطاها الله لنينوى أنَّه بعد **أربعين** يوماً تنقلب نينوى.

ويقيناً إن الأربعين المقدسة التي صامها المسيح، صامها عن العالم حتى يرفع عنه حُكْم انقلاب كان قد صدر من الآب بخصوص العالم ونحن لم ندرِ.

أيها الأحباء:

إن قصة صيام يونان ومن إحكام وضعه قبل الأربعين المقدسة؛ ندرك بوضوح قيمة الصوم سواء لدى الله الذي يُجازي، أو الإنسان الذي يتوب. فليست توبة بلا صوم إنْ كان حقاً بخوف الله وبصراخ صادق من القلب، فإنه قادر أن يفتح باب الرحمة لتتدفَّق إحسانات الله بدل عقاب التأديب. فهو الإنقاذ الوحيد من حرج موقف الخاطئ حينما يسمع بأُذني قلبه أن صبر الله قد فرغ وتعدَّت الخطايا حدود اللياقة، خاصة إنْ كان الإنسان قد تزيَّا بزيّ الأتقياء، فلم يصدر عنه إلاَّ الخطايا والعيوب تحت اسم التقوى الكاذبة وصورة أعمالها وأقوالها التي يُصدِّقها الناس ويمدحونها، بشبه نينوى العظيمة.

ولكن، وقبل أن يتحرَّج موقف الإنسان من الله ويصبح إمَّا يصوم صوماً للتوبة وإلاَّ فالرفض والهلاك؛ فإن الصوم مُعينٌ للتقوى لأنه يُلهب

قلب العابد ليُشدِّد من وقفة الصلاة وذرف الدموع وقرع الصدر ولذة السجود، أمور كلها عناصر منفتحة على سيرة القديسين ، ومحسوبة من أعمالهم التي غلبوا بها العالم وعبروا فرحين منتصرين، وتركوا لنا مسيرتهم مُعطَّرة بأعمال النسك جميعاً وعلى رأسها الصوم. فالصوم بمثابة مَنْ يقتطع لحمه ودمه ويُقدِّم ذبيحة تستحسنها "ملائكة الصوم" التي جاءت فَرِحة تخدم المسيح بعد أن أكمل صوم الأربعين، وتركه الشيطان خازياً.

وقد حسب المسيح أن صوم الجسد توطئة لازمة لقهر الشيطان، إذ بعد ما أكمل صومه جاع، وكأن الجسد بجوعه أعطى فرصة للشيطان أن يتقدَّم بعد أن كان ممنوعاً من الاقتراب طيلة الأربعين؛ إذ كان الصوم حدًّا من نار يُرعب الشيطان. فكان جوع الجسد، وكأن طلب الطعام كان منفذاً في حدِّ النار نفذ منه العدو ليُمارِس حقده وتحديه، فما أصاب. لذلك أوصى المسيح أن "صوموا" لكي لا تدخلوا في تجربة.

عجيب حقًّا، يا إخوة، أن يترك لنا المسيح مثال صومه لنسير على إثر خطواته لننال قوةً وانتصاراً. وهل يمكن أن نسير خلفه حاملين الصليب إلاَّ بعد أن نجوز خبرة صومه وجهاده وننال قوة ونصرة من حياته؟ إن صوم المسيح جزءٌ لا يتجزَّأ من صعوده على صليب موته وفدائه. فإن كانت القيامة سبقها موته، فموته سبقه صيامه.

ثم أَليس صوم المسيح يُخزي القائلين بأن الصوم عمل سلبي؟ فما صام المسيح لكي يضبط الجسد، وما صام ليتغلَّب على شهوات أو انحرافات؛ ولكنه صام بتدبير الآب، لأنه لم يذهب إلى البرية ليصوم بمشيئته، ولكن يقول الكتاب بوضوح وصراحة: «ثم أُصعِدَ يسوع إلى

البرية من الروح...» (مت ٤: ١)، لا هروباً من تجربة إبليس، بل لكي يواجه تجربة إبليس. فكان صومه سلاحاً إيجابياً جبَّاراً كقاعدة انطلق منها ليواجه تجارب إبليس.

بهذا الوضع قدَّم المسيح لنا الصوم كقاعدة إيجابية نواجه بها تجارب إبليس ونتحدَّاه: «أما هذا الجنس فلا يخرج إلاَّ بالصلاة والصوم» (مت ١٧: ٢١)، لأن المسيح يعلم أنه بالصوم يرتقي العقل الواعي فوق الجسد ومشاغباته، فيكون العقل مستعداً أن يحتمل أشد الضربات وأسوأ الحوادث المفاجئة التي يسوقها العدو لانهزامنا، ولكن يقف الإنسان صاحياً كأسد لا يهتز. فالصوم انحياز كلِّي للوعي الروحي، بل هو انحياز لقُوى الروح ومشورة السماء. وبدونه يستحيل أن يقول إنسان إني قد صُلِبتُ مع المسيح. فالذي يقبل أن يُصلَب يكون قد سبق وقدَّم الجسد على مذبح الصوم.

و"أنا" الإنسان يستحيل أن تَقبَل أن تُصلَب مع المسيح إلاَّ بعد أن تتحرَّر الأنا من عبودية الجسد، وهذا لا يتم إلاَّ بالصوم. لأن الذي يقول: أنا صُلِبتُ مع المسيح، فهذا يعني أنه قد مات بالجسد العتيق، والجسد العتيق لا يمكن أن يذوق الموت إلاَّ بالصوم.

لذلك يُحسب الصوم في أقوى حالاته أنه شريك القيامة، أو هو قوة للذين يعيشونها.

ثم ما السر المُخفَى وراء الصوم الشديد وضياع قوة الجسد؟ هذا نعرفه بصورة خاصة جداً من ملاك إيليا الذي استحضر له كعكة

وكوز ماء ليأكل بعد أن سار يوماً كاملاً بلا أكل ولا شرب إلى أن جاء وجلس تحت الرتمة. فلما أكل الكعكة وشرب الكوز نام من الإنهاك، فمسَّه الملاك وأيقظه واستحضر له كعكة ثانية وكوز ماء وقال له: قُمْ وكُلْ لأن المسافة كثيرة عليك. فقام وأكل وشرب، وسار بقوة تلك الأكلة. ولكن على وجه الأصح أراد أن يقول الكتاب إنَّ بقوة هذا الصوم سار إيليا أربعين نهاراً وأربعين ليلة حتى بلغ جبل حوريب (١مل ١٩: ٤-٩).

وهكذا نأتي أيضاً إلى سر قوة صوم الأربعين يوماً والأربعين ليلة وما وراء هذا الصوم الأربعيني من قمة منجزات الإنسان: الصوم وهباته وبركاته. إذ بالنهاية رأى إيليا الربَّ وتكلَّم أمامه وأخذ توبيخاً وأخذ رسالة. وكأنما أُعطي الصوم للإنسان ليرى به وجه الله ويسمعه.

ولولا أن شعب إسرائيل صنع حماقة وطلب خبزاً في البرية وماءً لَسَارَ الأربعين سنة بأكلة الفصح حتى دخل أرض الميعاد. فالذي سار أربعين يوماً وأربعين ليلة بأكلة وشربة ماء لا يصعب عليه وهو تحت يد الله أن يسير بها الأربعين سنة. ويتم بها قول الأمثال: «بركة الرب هي تُغْني ولا يزيد معها تعباً!» (أم ١٠: ٢٢)

وفي الحقيقة، يا إخوة، لو فحصنا بالروح سر قيام الإسقيط حتى اليوم ودوامه، وما وراء ما خلَّفه لنا شيوخه الأماجد من كنوز تركوها لنا ميراثاً نعتزّ به؛ لوجدنا الصوم هو الكنز الأكبر، تركوه لنا مختبئاً في برية، فبِعْنا العالم واشترينا البرية لنفوز بالكنز!

(عام ٢٠٠٠م)

- ها هي نينوى تضع لنا نموذجاً لتوبة بسيطة قادرة أن تفتح أبواب السماء، وتُحدر عفواً شاملاً بلا أي استثناء للمدينة بأسرها، قيل عنها في الكتاب إنها لا تعرف شمالها من يمينها!!
- ثقوا، إن ساعات الخلاص وأيام الرجاء لا تأتي جزافاً أبداً. إن كنتَ تريد خلاصاً سريعاً، إن كنت تريد أزمنة فرج؛ فاليوم تعلَّم من درس نينوى، وهو درس للأجيال كلها...
- أيها الأحباء، إن من قصة صوم يونان ومن إحكام وضعه قبل الأربعين المقدسة؛ ندرك بوضوح قيمة الصوم سواء لدى الله الذي يُجازي، أو الإنسان الذي يتوب. فليست توبة بلا صوم إنْ كان حقًّا بخوف الله وبصراخ صادق من القلب، فإنه قادر أن يفتح باب الرحمة لتتدفَّق إحسانات الله بدل عقاب التأديب.

الثمن ٥٠ قرشاً

(٣٤٢)